الدموع: شفاء الإنسان

الأرشمندريت زخريا زخرو من دير آسكس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أحد أكثر الطرق أماناً لتحقيق الشخصية هو طريق الدموع. بالدموع تتحد كل قوى النفس لنرتفع إلى مستوى محبة الله والقريب كما تقتضي وصايا الرب. هناك تمامية يقينية في الشخص الذي يبكي أمام الله إذ يكون القلب والعقل متحدين. بقوة النعمة يُصلَب العقل وينزل إلى القلب. يُصلَب العقل في محاولته العيش حسب التعاليم الإنجيلية.

في كل مرة نبكي أمام الله، يبدو الأمر كما لو أنه يحمل ريشة يعمل بها مسحاً على النفس، بحيث أنها بعد فترة، من خلال هذه المسح المستمر، تظهر صورة المسيح على القلب. كما وُلِدنا ثانيةً بمياه المعمودية، كذلك نتجدد بتدفق الدموع في النوح الروحي. وبالمثل، كما ننال ختم الروح القدس بزيت الميرون المقدس، كذلك ننال بمسحة الدموع نعمة الاستنارة.

في البشارة، حُبل بالرب يسوع المسيح في صورة إنسان بالروح القدس من مريم العذراء. لقد صار إنساناً ليظهِر لنا الله في الجسد. وبالمثل، من خلال الدموع، نتصور تدريجياً الحياة الإلهية في داخلنا لإظهار ما رسمه الله لنا منذ الأزل، أي أن نصير صورة ابنه الكاملة ومثاله. يتصوّر الروح القدس فينا هذه الصورة التي تُختَم بالبكاء فتعرفنا الملائكة الذين سيجمعوننا جميعاً في ملكوته في اليوم الأخير[١].

من أسماء الرب يسوع المسيح عمانوئيل أي "الله معنا". عندما أخذ الكلمة جسداً، صار محسوساً من أجلنا، مع كونه روحاً. يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي: "Ο Λόγος παχύνεται" أي حرفياً "الكلمة أسمَن"[٢] أي كلمة الله "صار ذا جسد" حتى نتمكن من لمسه ورؤيته وسماعه. لقد "سُمن" بطريقة جسدية حتى يصبح ملموساً بالنسبة لنا. ونحن أيضاً، بالمثابرة على عَمَل الدموع، والنوح الروحي، نتسمّن ولكن في نفوسنا. أي أننا نبدأ في قبول آثار النعمة، فتتسمّن نفوسنا، وتغتني، وتكتسب الامتلاء، وتصبح مرئية لله ولملائكته القديسين. يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد: "كما أن الطعام والشراب ضروريان للجسد، كذلك الدموع للنفس. وإذا لم نبكِ كثيراً، فإننا نجوّع أنفسنا ونهلكها من الجوع"[٣].

هذا هو في الأساس عمل التوبة: أن يسمن كل إنسان نفسه باستمرار بالندم والدموع، حتى يجمع آثار حضور الله في قلبه. ومع الوقت تنمو هذه الآثار إلى ملء حياة جديدة فيه، تكون نوراً لعقله وقوة لقلبه، حتى يرقى إلى العلاء وينافس الملائكة. في هذه الحالة يصبح أقنوماً حقيقياً. يقتني حالة الله. لقد مُسِح بالروح القدس، ونال نفس السرور في قلبه مثل الله: أن الجميع يخلصون. ثم يبدأ "العمل الحقيقي" للإنسان الحقيقي الذي يخرج إلى عمله حتى المساء[٤]، وهو تقديم كل مخلوق إلى الله في صلاة شفاعته. إن إكليل التوبة هو كمال الصلاة الأقنومية، بلوغ الحالة التي فيها نقف أمام الله، فلا يرى فينا مجرد اسم بسيط، بل العالم كله في قلوبنا مقدماً له.

التسمين يعني الشبع. للأقنوم ملء يشمل كل ما هو إلهي وكل ما هو بشري. يتكوّن أقنوم المسيح ملء الطبيعة البشرية والإلهية وأقنوم الإنسان، عندما يصير كاملاً، يكون له أيضاً ملء اللاهوت بالنعمة.

باتحاده بالقوى الإلهية، يتّسع قلب الإنسان ليحتضن البشرية جمعاء ويقدمها أمام الله. للنعمة ملءٌ في الأقنوم البشري الكامل، ومن خلال تلك النعمة يصبح هذا الإنسان وسيطاً لكل العالم.

إن الذين مُسحوا بنعمة الصلاة من أجل العالم، لهم مسحة لا يراها الناس، بل تُميزها الملائكة. فالله يعرف خاصته، كما أن ملائكته قادرون على تمييز آثار صورة المسيح على وجه المؤمنين وفي قلوبهم. حتى في هذه الحياة، هذه الظاهرة ليست خارج إدراكنا بالكامل؛ قد نكون قادرين على فهم بعض الشفافية لدى الأشخاص الذين يبكون، والتي تظهر أحياناً في وجوههم. عندما يبكي الإنسان في الصلاة قد تصبح بشرته ناعمة ولامعة، فيشعر بملمس المسحة في الجلد؛ بشكل رئيسي على الجبهة ولكنه قد ينتشر أيضاً إلى كامل جسم الإنسان. قال الشيخ صفروني إنه شعر بهذه المسحة في جميع أنحاء جسده وأنه شعر أيضاً أنها ستحرق أي شيء غريب عن الله.

تحتوي إحدى صور القديس بولس على كل قوة سر المسحة هذا، عندما يقول: "فَإِنَّنَا فِي هذِهِ أَيْضاً نَئِنُّ مُشْتَاقِينَ إِلَى أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا مَسْكَنَنَا الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ... لِكَيْ يُبْتَلَعَ الْمَائِتُ مِنَ الْحَيَاةِ" [٥]. التوبة تعني في الواقع أن نقتني هذه الرغبة الصادقة وأن نئن باستمرار لتقبّل النمو من الله، الذي هو المسكن السماوي، حتى شيئاً فشيئاً يبتلع عدمُ الموت الموتَ. من ثمّ يُعطى لنا استشعار عدم فساد جسدنا، علامة على القيامة المستقبلية، كما كان الحال في حياة النبي أيوب، عندما تنبأ " وَبَعْدَ أَنْ يُفْنَى جِلْدِي هذَا، وَبِدُونِ جَسَدِي أَرَى اللهَ" [٦]. إذا اختبرنا تعزية الدموع غير القابلة للفساد، ومن خلالها نتلقى تأكيداً على بقائنا، فعندئذ سنكون قادرين على رؤية جميع إخوتنا على أنهم مقدرون لعدم الموت أيضاً، ونتيجة لذلك نحبّ حتى أعداءنا. من ثمّ نكون قادرين على التحدث إلى الرب بلغته، لغة الدموع، من أجلنا ومن أجل جميع الناس، ومن خلالها يتنازل إلينا ويشفينا.

أوصى الشيخ صفروني رهبانه بالدموع منذ أول أسبوع لهم في الدير. كان يقول لهم: "إذا أردتم أن تستأصلوا أهواء النفس، تعلموا البكاء". ولتعزيز تعليمه، كان يوصي دائماً بتعليم القديس سمعان اللاهوتي الحديث. يتمتع لاهوت القديس سمعان الصوفي بعنصر مواهبي قوي إذ يضع كل ثقته في يسوع القدير. فهو يثق في كل الكلمات التي يضعها في فمه. ثقته كبيرة بأن الرب سيفتح فمه بالرغبة في التوبة. في هذا هو يشبه القديس بولس الذي يقول: " لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا" [٨]. ويتمتع القديس سمعان بنفس الثقة الرسولية بأن مَن بدأ فينا عملاً صالحاً، سيبقى أميناً ليكمله. ولهذا السبب هو يقترح في العظة التعليمية الثلاثين صلاة محددة قبل البكاء ثم يضيف: "وأية كلمات أخرى يضعها الله في فمك في تلك اللحظة" [٨]. بمعنى آخر، هو يترك مساحة للروح، مشجعاً الصلاة الحرّة من القلب.

إن لغة الدموع هي لغة الروح القدس في كل إنسان. تتحدث هذه اللغة في قلوبنا بشكل مختلف وفي أوقات مختلفة. إننا نقرأ نفس المقاطع من الكتاب المقدس عدة مرات، ومع ذلك يأتي يوم يتردد فيه صدى الكلمة فينا كما ترددت في المرة الأولى في قلب مَن نطقها، لتفتح لنا فحوى جديداً تماماً. أتذكر اليوم الذي عثرت فيه على كلمة أيوب هذه، التي أخصص لها هذا الكتاب: "مَا هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَعْتَبِرَهُ، وَحَتَّى تَضَعَ عَلَيْهِ قَلْبَكَ؟ وَتَتَعَهَّدَهُ كُلَّ صَبَاحٍ، وَكُلَّ لَحْظَةٍ تَمْتَحِنُهُ؟... لِمَاذَا جَعَلْتَنِي عَاثُوراً لِنَفْسِكَ"

لقد فتحت الكتاب المقدس بشكل عشوائي ووجدت هذه الآية التي يبدو أنها تحتوي على كل لاهوت الشيخ صفروني. تستخدم كلمة غير عادية κατεντευκτης، غير معروفة في اليونانية الحديثة، ويمكن تقديمها ك"هدف" أو "مفتري". في اليونانية السبعينية تعني من يبدأ محاججة ليس لأسباب أنانية بل

من أجل فهم السر الإلهي. من يصل إلى حالة كونه κατεντευκτης، يصبح أيضاً هدفاً لاستفقادات سرية إلهية، هي مصدر كل الدموع.

يقول القديس يعقوب: " اقْبَلُوا بِوَدَاعَةٍ الْكَلِمَةَ الْمَغْرُوسَةَ الْقَادِرَةَ أَنْ تُخَلِّصَ نُفُوسَكُمْ"[٩]. هذه الكلمة المغروسة هي الكلمة الفطرية، تلك العطية الأولية التي أعطاها الله للإنسان ليخلقه على صورته ومثاله، لتمكينه من تلقي وحيه. المبدأ نفسه تم التعبير عنه في الرسالة إلى أهل كولوسي بأنه " خِتَان غَيْرِ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ "[١٠]. وهنا يقول القديس بولس بشكل مجازي أننا مختونون، أي أن القلب مجروح، لا بطريقة مادية أو جسدية، بل بختان المسيح، أي بكلمته، حسب وصايا الإنجيل. عندما يُجرح القلب بمبادئ الإنجيل، ويُختتن به، ينسحق ويتذكر دائماً ذاك الذي جرحه. هذه هي التوبة – أن نحمل ختان المسيح هذا على الدوام.

علينا أن نحتمل هذا الجرح في القلب الذي يتكشّف لنا بالدموع. وبدونه نصبح باردين ونصبح متكيفين بسهولة مع نماذج هذا العالم، حتى أننا سنصل إلى حالة تجعلنا نريد أن نجعل محبة هذا العالم متوافقة مع محبة الله. نحن بحاجة إلى تعزية الله لتكون فينا أقوى من قوة هذا العالم. نحن بحاجة إلى نار أقوى لإطفاء نار الأهواء. لذلك علينا أن نحتمل هذا الجرح الذي يذكرنا دائماً بشيء أبعد من ذلك بكثير، كامل ومقدس. إذا اقتنينا في داخلنا هذا التذكير، نكون قادرين على تمييز "إرادة الله الصالحة والمقبولة والكاملة". ومن الأهمية بمكان بالنسبة لنا أن ندرك ونتبع آثار إرادة الله، إذ بعد ذلك نجد الحياة: "في إرادتك حياة"[١٢].

تبدأ الدموع بالتدفق عندما نسلم أنفسنا لإرادة الله ونبدأ في فهم عنايته. عندما نعتمد كلياً على الله ونضع كل ثقتنا فيه، فإن كل قوى روحنا تتحد ونصبح قادرين على التوجه بالكامل إلى وجه المسيح. إن فائدة الدموع العظيمة هي أنها تسمح لنا بتقديم أنفسنا إلى الله بكل كياننا. إنها العلامة، المسحة، التي تجعلنا مقبولين أمامه.

في المراحل الأولى من تعلمنا النوح، تكون دموعنا مريرة لنا بسبب حالتنا البائسة. من خلال هذه الدموع الحارقة نبدأ بكراهية كل ما يقاوم نعمة الله فينا ويمنع الروح القدس من أن يسكن فينا. إن تواضع البكاء في الصلاة يغسل رؤيتنا الروحية، وتنفتح عيننا الداخلية على إدراك العالم الروحي. تذوب القشور التي على بصرنا.

مع الوقت، تصبح الدموع أكثر فرحاً، ومفعَمة بالعطش إلى اتحاد أكثر كمالاً مع إله خلاصنا. كلما زادت الدموع غزارةً، كلما عظم عمل النعمة المصاحبة لها، يصبح الاستسلام لعمل التوبة أسهل. في البداية يكون الأمر مؤلماً، ولكن، كما مع كل صلاة، نستمر في المحاولة حتى يأتي إلينا الوحي الذي بمجرد أن يُمنح لنا لا نريد أن نتخلى عنه. وفي النهاية، تمتلئ دموعنا بالامتنان لفوائد صلاح الله التي لا تحصى والتي لا توصف، والتي لم نكن قادرين على رؤيتها من قبل.

تماماً كما ساهمت صرخة المسيح القوية ودموعه الطوعية في الجثسمانية في خلاصنا، كذلك فإن الطريقة التي نجعل بها هذا الخلاص خلاصنا هي اتباع نفس الطريق. إذا كنا حقاً تلاميذ للصليب، فسنكون أيضاً عاملي دموع، لأن الرب قال: "طوبى للحزانى". إن الحزن الروحي هو نشاط محيٍ لروح الإنسان. حَامِلِينَ فِي الْجَسَدِ كُلَّ حِينٍ إِمَاتَةَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لِكَيْ تُظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضاً فِي جَسَدِنَا" [١٤]. يتأسف النبي يوئيل أن "بني البشر يخزون"[١٥] نحن بحاجة لأن نتوب لأننا فضّلنا الفرح الكاذب على الفرح الروحي. بدلاً من السعادة الحقيقية، سعينا وراء مسرات هذا العالم الزائلة. إن الحزن الروحي

يفصلنا عن الملذات الفاسدة التي تخزي فرح الله الحقيقي. "طوبى للباكين فإنهم يضحكون"[١٦] هذا الضحك الروحي هو ضحك منتصر، علامة على أن النعمة بدأت تتغلب على الموت فينا.

إن الفرح المبارك الناتج عن دموع الندم يُترجم في اليونانية بكلمة κατάνυξις، والتي تُترجم عادةً إلى الإنكليزية وخز الضمير. ترجم الشيخ صوفروني هذا المصطلح على أنه "amour triste" أي "محبة حزينة". يسميها آباء الكنيسة χαρμονύπη، أي الفرح والحزن في نفس الوقت. يقول القديس بولس إنه كان في كل حين "يبكي مع الباكين ويفرح مع الفرحين"[١٧]. لقد كان قادراً على القيام بالأمرين معاً في وقت واحد، لأنه كتلميذ للصليب، كان أيضاً تلميذاً لغبطة حياته المُقامة. في التوبة عنصر فرح قوي بسبب حضور الروح القدس الذي يعزّي النفس: "بالصليب قد أتى الفرح لكل العالم" [١٨].

في المزمور ١١٩ الرائع، الذي يصف شوق النفس إلى التحرر من هذه الحياة لتكون مع الله إلى الأبد، مكتوب: "أنهار مياه تجري من عينيّ" [١٩]. ليست دمعة وحسب بل أنهار من الدموع! لا يمكننا أبداً أن نبلغ ما يكفي من الندم؛ لا يمكننا أبداً اقتناء ما يكفي من الدموع؛ ولا حتى ذلك النوع من البكاء الذي يأتي من أعماق قلوبنا ويهز كياننا بالكامل حتى النخاع. مثل هذا البكاء يغيّر حياتنا، ومثل هذه اللحظات تصبح أساس وجودنا. على المدى الطويل، عندما نعود إلى هذه اللحظات، فإنها تثبت أنها سند لنا، لأننا نعلم أن "عِنْدَ الْمَسَاءِ يَبِيتُ الْبُكَاءُ، وَفِي الصَّبَاحِ تَرَنُّمٌ"[٢٠].

في العهد الجديد، القديس بطرس هو أفضل معلم للدموع. لقد ارتكب أعظم خطيئة على الإطلاق: كونه تلميذ الرب الأول، أنكره ثلاث مرات، أي أنه فقد كل نعمة المعمودية. لكن الرب توقع أنه سيجرَّب وصلى من أجله. ولما أدرك بطرس عمق سقوطه، خرج وبكى بكاءً مراً [٢١]. وفي يوم الجمعة العظيم نسمع هذه الآيات التي تعبّر عن صرخته إلى الرب: "لاَ تَسْكُتْ عَنْ دُمُوعِي. لأَنِّي أَنَا غَرِيبٌ عِنْدَكَ. نَزِيلٌ مِثْلُ جَمِيعِ آبَائِي" [٢٢]. وبدموعه المرّة، شُفي بطرس من خطيئته، واستُعاد في غضون أيام إلى قيادة الرسل. يمكننا أن نرى هذا من كلام الملاك لحاملات الطيب: "اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: إن الرب يسبقكم إلى الجليل" [٢٣].

إن للمرأة التي من المدينة والتي مسحت الرب بالمر ذكر أبدي أمام الله بسبب دموعها وكثرة محبتها. إن الدموع هي علامة المحبة؛ لا يمكننا أن نبكي إن لم نكن نملك الرغبة الحقيقية والمحبة الحقيقية. لا يمكننا أن نبكي إلا إذا كان لدينا شيء واحد في أذهاننا وفي قلوبنا. إذا كنا مزدوجي التفكير فلا يمكننا أن نبكي. يأتي البكاء مع فكرة عدم استحقاقنا المطلق وفقرنا الروحي. "طوبى للفقراء بالروح" يتبعها مباشرة "طوبى للحزانى" [٢٤]. علينا أن نتذكر دائماً أننا فقراء وعدم كامل، أن نكون مستعدين دائماً لإلقاء اللوم على أنفسنا، وإدانة أنفسنا ولوم ذواتنا. يقول القديس غريغوريوس بالاماس إن هذا اللوم للذات هو الخمر الحقيقي الذي يفرح النفس، كما تنتج الندامة دموعاً حارّة [٢٥]. إنه ينير النفس ويقطع إرادة العدو، ويجعلنا نتبع إرادة الله فقط. لذلك لا بد لنا من الانسحاق، لأن الانسحاق هو الذي يبهج النفس بالخمر الحقيقي الذي يقوي الروح.

لما رأى إبراهيم الله قال: "أنا أرض وتراب"! علينا أن نحفظ من يوم إلى يوم هذا الانكسار الذي هي نور لروحنا، والذي هو بداية المحبة الحقيقية. إحدى طرق فهم هذا العلم العظيم هي من خلال الكلمات التي قالها الرب لأبينا القديس سلوان: "احفظ عقلك في الجحيم ولا تيأس". إن حياتنا مليئة بالجحيم؛ نحن بسنا ثابتين باستمرار في حضرة الله؛ ولا نحن نُقاد بروحه طوال الوقت؛ نحن لا نستنير باستمرار في أذهاننا ونتحول في قلوبنا؛ في أغلب الأحيان نحن نتصارع مع الخطيئة؛ نحن نصارع غفلتنا عن الله، ضد اليأس. عندما يكون الله غائباً في الواقع عن حياتنا، فإننا نكون في الجحيم. الجحيم هو مكان غياب

الله. إحدى طرق تطبيق كلمات الرب للقديس سلوان هي أن نقول: "نعم يا رب، أنا أستحق هذا الأسى، أستحق أن أكون بعيداً جداً عن خلاصك، أستحق أن يكون بيت نفسي بكليته جحيماً". ولكنك أنت صالح، خلصني بدون قيد وبلا سبب، أنا غير المستحق.

اعتاد الشيخ صوفروني أن يقول إن أي شخص يعيش بهذه الطريقة، بالندم والدموع، لا يجروء حتى على النظر إلى وجه طفل. هذه هي روح الذين يتغذّون من دسم الله، طريقتهم. ويل لنا إذا جعلنا برَّنا يقف أمام الله، معتمدين على أعمالنا الخارجية أو مواهبنا الطبيعية. المحبة الإلهية تكون حيث يوجد الندم على الخطايا والشكر لله. علينا أن نحافظ على روح الانسحاق هذه، لينزل الروح القدس في النفس، ويحدث زلزالاً، وينفض قشور اليأس التي تراكمت فينا، ويجددنا كما تجدّد الرسل في العنصرة. إن الذين ينالون مسحة الروح القدس من خلال الانسحاق والدموع، يبدؤون بمحبة الله بطريقة شرسة جداً، حتى أنهم يرون أنفسهم وكأنهم لم يبدؤوا بعد في طريق المحبة الإلهية. لهذا السبب يستطيعون أن يقولوا مثل القديس بولس: "المسيح جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أنا أولهم"[٢٨].

في الفردوس، عندما كان آدم لا يزال ثابتاً في حضرة الله، كان ينظر إلى حواء فيراها لحماً من لحمه وعظماً من عظامه – مثل حياته. ولكن، عندما عصى إرادة الله وطلبه الرب، قال: "المرأة التي أعطيتني هي غوتني وأهلكتني". لقد عامل حواء كغريبة عن نفسه، كدخيلة. فإذا خنّا هدفنا الأصلي كما فعل آدم، لن نتمكن بعد ذلك من تقديم المحبة الأخوية لإخوتنا. سوف ننظر إليهم كغرباء، كتهديد لحياتنا وندينهم. منذ سقوط جدّينا، أصبح الموقف الوحيد المقبول لدى الله هو اعتبار أنفسنا غير مستحقين لله وغير مستحقين لإخوتنا. إذا حافظنا على هذا السلوك، فلن يأتي أي حكم أو انتقاد أو كلمة سلبية على شفاهنا ضد إخوتنا، لأن القوة التي جلبتها مسحة الله من خلال الندم والدموع ستقطع رأسها في حلوقنا قبل أن ترتفع إلى لساننا.

هذا ما نحن مدعوون إليه كأتباع المسيح. في الواقع، في كل مرة يهبنا الرب أن نبكي على خطايانا، تغمرنا لمسة من الأبدية، لمسة من النعمة التي تمسحنا وتجعلنا نتصرف بشكل مختلف مع إخوتنا. إن لم نبكِ كل يوم ولم نجعل ذلك من غاياتنا الرئيسية، فلن نرى أن أخانا هو حياتنا، كما يحثنا القديس سلوان، وسوف نستمر في عض بعضنا البعض حتى "يفني بعضنا بعضاً" [٣٠].

إن لوم أنفسنا وحمل خطئنا وعار خطيئتنا هو العلامة على أن محبة الله تعمل فينا. وهذه المحبة تصبح نوراً للنفس، فلا يعود الإنسان يقارن نفسه بالبشر الآخرين، بل بالمقاييس الإلهية، أي بصورة ربنا يسوع المسيح. عندئذ يستطيع أن يدرك أن أعظم وصية في العهد الجديد هي في قول الرب: "كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً، مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إِنَّنَا عَبِيدٌ بَطَّالُونَ، لأَنَّنَا إِنَّمَا عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا" [٣١].

من بين جميع أنبياء العهد القديم، أعظم معلم للدموع هو النبي أيوب، إذ يقول هو نفسه: "تحولت قيثارتي إلى النوح، وأرغني إلى صوت الباكين" [٣٢]. عندما قُتل أولاده وهلك ماله وأصيب بالأمراض، قالت له امرأته: "العن الله ومت" [٣٣] لقد كانت تجربه عالمة أنه إذا جدف على الله تنتهي كل مصائبه. لكن أيوب يعلم أنه إذا سبّ الله فلن يكون له رجاء في الأبدية. لذا بقي مستسلماً لإرادة الله، حتى وهو يتألم من الدموع، قائلاً: "كُنْتُ مُسْتَرِيحاً فَزَعْزَعَنِي، وَأَمْسَكَ بِقَفَايَ فَحَطَّمَنِي، وَنَصَبَنِي لَهُ غَرَضاً... اِحْمَرَّ وَجْهِي مِنَ الْبُكَاءِ، وَعَلَى هُدُبِي ظِلُّ الْمَوْتِ... لِكَيْ يُحَاكِمَ الإِنْسَانَ عِنْدَ اللهِ كَابْنِ آدَمَ لَدَى صَاحِبِهِ" [٣٤].

لا يدرك أيوب أنه هو نفسه يتصرف بطريقة ترمز إلى المسيح المحامي عن البشرية الذي يسعى إليه. وفي اختباره لله، يُظهِر إحدى السمات الرئيسية للشخصية، حيث يعمل كحكم للبشرية جمعاء أمام الله ويتوسل إلى تبرير المعاناة البشرية. في كتابه "في الصلاة"، يُدرج الشيخ صوفروني رثاء أيوب كما لو كانت صلاته الخاصة. وفيه يلعن أيوب نفسه ومعه البشر، فتكون صرخته كصرخة آدم المطرود من الجنة:

"ليبِد النهار الذي ولدتُ فيه والليل الذي قيل فيه: قد حُبل برجل... ليملكه الظلمة وظل الموت... ليرعبه سواد النهار." .. ها، لتكن تلك الليلة منفردة، ولا يأتي فيها صوت فرح. ليلعنها لاعنو النهار... ليبحث عن نور وليس له نور ولا هو يرى الفجر. لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الحزن عن عيني. لماذا لم أمت من الرحم؟ لماذا لم أسلم الروح عندما خرجت من البطن؟... لأنه كان ينبغي لي الآن أن أستلقي ساكناً وأكون هادئاً (في هدوء اللاوجود الواسع)... لماذا يُعطى النور لرجل طريقه (إلى "معرفة الله) مخفي، والذي سياجه الله؟ "[٣٥].

بعد أن توسل أيوب إلى الله، مصوراً الحالة البشرية على أنها ميؤوس منها، حصل على الجواب: قام كما من الجحيم، وأتيح له رؤية الرب وجهاً لوجه. وبعد أن اتهم الله، بسبب الدمار الذي أصابه، تأدّب بفم الله:

"فَأَجَابَ الرَّبُّ أَيُّوبَ مِنَ الْعَاصِفَةِ وَقَالَ: مَنْ هذَا الَّذِي يُظْلِمُ الْقَضَاءَ بِكَلاَمٍ بِلاَ مَعْرِفَةٍ؟ أُشْدُدِ الآنَ حَقْوَيْكَ كَرَجُل، فَإِنِّي أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمُنِي. أَيْنَ كُنْتَ حِينَ أَسَّسْتُ الأَرْضَ؟ أَخْبِرْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ فَهْمٌ. مَنْ وَضَعَ قِيَاسَهَا؟.. «هَلْ يُخَاصِمُ الْقَدِيرَ مُوَبِّخُهُ، أَمِ الْمُحَاجُّ اللهَ يُجَاوِبُهُ؟».. فَأَجَابَ أَيُّوبُ الرَّبَّ فَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ... بِسَمْعِ الأُذُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ، وَالآنَ رَأَتْكَ عَيْنِي. لِذلِكَ أَرْفُضُ وَأَنْدَمُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ" [٣٦].

في كل تجاربه، عرف أيوب أن هناك سبباً أعمق وراء عذابه، وصارع باستمرار لفهم دينونة الله. في النهاية، عندما زاره الله لكي يراه بأم عينيه، رثى نفسه وندم لأنه لم يتألم أكثر، وفقط عندما احتمل حتى النهاية، مُنح لقاءً كاملاً مع الإله الشخصي حتى يتحقق مبدأه الأقنومي. تكشف تجربة أيوب أقنوم الإنسان (المحبة حتى كراهية الذات)، كما تكشف حقيقة الصليب وكل الآلام التي عاناها المسيح، تكشف شخص المسيح (المحبة حتى النهاية). هذا هو حكم العالم. وكما يقول المسيح: "الآن دينونة العالم"[٣٧].

يكتب القديس سلوان أن النبي أيوب، بكل ما احتمل من الذل، أصبح شبيهاً بالمسيح: "عندما يدخل سلام المسيح إلى النفس، تفرح عندما تجلس مثل أيوب بين الرماد وترى الآخرين في المجد؛ عندها تفرح النفس بأنها أسوأ من أي شخص آخر. إن سر التواضع الشبيه بالمسيح هو سر عظيم، من المستحيل أن ينكشف. من المحبة، تتمنى النفس لكل إنسان خيراً أكثر مما تتمناه لنفسها، وتسعد عندما ترى الآخرين أكثر سعادة، وتحزن عندما تراهم يعانون" [٣٨].

لقد بلغ أيوب محبة المسيح، مثل القديس سلوان، من خلال المعاينة المباشرة لوجه الله. لقد صار مثل المسيح من خلال اتباع طريقه؛ بالنزول أولاً إلى الجحيم ثم الصعود إلى السماء. لقد عرف أيوب قوة الدموع. في مثل هذه المعاناة، كيف يمكن أن يبقى على قيد الحياة؟ نيكولاس، شقيق الشيخ صفروني، الذي مكث في معسكرات العمل القسري في سيبيريا لسنوات عديدة، سأله ابنه مرةً: "هل صليت هناك في المعسكرات؟" فابتسم وقال: "كان من المستحيل البقاء على قيد الحياة بدون الصلاة".

إن اتباع طريق أيوب والمحافظة على الحديث المستمر مع الله، حتى في غياب أي تعزية، يؤدي إلى تجديد النعمة والدخول الغني إلى ملكوته. بعد افتقاد الرب لأيوب، استعيد أيوب نفسه ووجدها، كما قال، مكرراً ما كان في شبابه "وَلَمَّا كَانَ رِضَا اللهِ عَلَى خَيْمَتِي، وَالْقَدِيرُ بَعْدُ مَعِي وَحَوْلِي غِلْمَانِي، إِذْ غَسَلْتُ خَطَوَاتِي بِاللَّبَنِ، وَالصَّخْرُ سَكَبَ لِي جَدَاوِلَ زَيْتٍ" [٣٩]. هذا هو غنى رحمة الله لقديسيه، التي يستطيع القديسون بعد ذلك نقلها للآخرين من خلال كلماتهم وحضورهم.

في المزامير، "خبز الدموع"[٤٠] يقوي القلب ليقف في حضرة الله. من خلال هبة الدموع، يتجرأ القلب على اتباع طريق المسيح وتنفيذ جميع الوصايا. هذه هي جرأة الصليب إن كنا تلاميذ الصليب. "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد". وبصليبه كشف لنا الطريق العجيب الذي يؤدي إلى السماء. ولكن بما أننا، مثل بطرس، لا نستطيع دائماً أن نحمل هذا الصليب، فليس لدينا وسيلة أخرى لنتبع هذا الطريق سوى الصلاة بالدموع. وليس هناك طريقة أخرى للشفاء إلا من خلال الدموع. إن طبيعة البكاء هي التي توحّد كل قوى النفس، وحينها فقط، في حالة شفائه، يستطيع الإنسان أن يتمم وصايا المحبة بكل قلبه.

Endnotes:

1. Rev. 9:4.
2. PG 36, 313B.
3. Saint Symeon the New Theologian, The Discourses, trans. C.J. de Catanzaro, (New York: Paulist Press, 1980), p. 314.
4. See Ps. 104:23.
5. Cf. 2 Cor. 5:2-4,
6. Job 19:26.
7. Rom. 8:26.
8. Saint Symeon the New Theologian, The Discourses, p. 322.
9. Jas. 1:21.
10. Col. 2:11.
11. Rom. 12:2.
12. Ps. 29:6 (LXX).
13. Matt. 5:4.
14, 2 Cor. 4:9-10.
15. Joel 1:12 (LXX)
16. Luke 6:21
17. Cf. Rom. 12:15

١٨. من ترانيم القيامة بعد الإنجيل في السحر.

19. Ps. 119:136
20. Ps. 30:5 (LXX).
21. Luke 22:62.
22. Ps. 39:12.
23. Cf. Mark 16:7.
24, Matt. 5:3.
25. Saint Gregory Palamas, 'To the Most Reverend Nun Xenia' in The Philokalia, vol. IV, p. 314.
26. Gen. 18:27.

27. See also Saint Symeon the New Theologian, The Discourses, pp. 151 and 254.
28. 1 Tim. 1:15
29. Saint Silouan, p. 371.
30. Gal. 5:15.
31. Cf. Luke 17:10.
32. Job 30:31.
33. Job 2:9.
34. Job 16:12, 16, 21.
35. Cf. Job 3. Edited in “On Prayer”, pp. 126-127 and in “His Life Is Mine”, pp. 46-47.
36. See Job 38-42. This passage is quoted in full in We Shall See Him, pp. 151-152, with additions.
37. John 12:31.
38. Saint Silouan, 305.
39. Job 29:5-6.
40. Ps. 80:5

Source: Archimandrite Zacharias Zacharou. “Tears: the Healing of the Person”. In *Man, the Target of God*. Stavropegic Monastery of St. John the Baptist. 1st edition. 2015